الإحياء الشعري في المشرق

تمهيد:

شهد الأدب العربي عبر مراحله التاريخية فترات من الازدهار، وفترات أخرى من الضعف والهبوط، وكثيرا ما كان ذلك مرتبطا بقوة دولة العرب والإسلام أو ضعفها، وحديثا أراد الأدباء العرب ولا سيما الشعراء النهوض بالأدب من نومته، فسمي أدب هذه الفترة بأدب الإحياء، والإحياء هو البعث وهما إعادة الحياة إلى الكائنات الهامدة أو الميتة، وأدب الإحياء هو أدب قام على أساس بعث الأدب القديم، وبث روح جديدة فيه، والأدب القديم لم يكن أدبا ميتا، إنما كان مهجورا أيام عصور الضعف والانحطاط الذي شهده الوطن العربي بسبب القطيعة مع القديم إبان حكم العثمانيين والمماليك، حيث انتشرت مظاهر التردي والانحطاط وفساد الحكم والاضطراب السياسي، وعدم تشجيع الحكام للشعر والشعراء وتقريبهم وتقديرهم، لكن في العصر الحديث انكب شعراء العصر على قراءة دواوين الشعر الجاهلي والشعر العباسي والإفادة منها، وكل قارئ أو حافظ يتأثر لا محالة بمقروئه وبمحفوظه، « فما كان الكاتب إلا رجلا من الناس يتأثر بما يقرأ ويحفظ، ثم يستلهم بعد ذلك ما قرأ وحفظ قبل مرحلة الكتابة وأثناءها معا [...] وبقدر ما يكون محفوظ الكاتب أجود أصلا، يكون إنتاجه أرقى وأقوى » [1]، لذلك بعثت أساليب القدامى وحتى موضوعاتهم في شعر المحدثين، فالنصوص تحيا وتعمر وتتجدد بفعل القراءة وبفعل الإبداع.

مظاهر الإحياء في عهد البارودي:

ظهر في عصر النهضة جيل من الشعراء العرب فتح عينيه على ذاته وتاريخ أمته وراح يتعقب أسباب تخلفه، وعوامل الجمود في مجتمعه، والركاكة في أدبه، فلم ير نموذجا إبداعيا يحاكيه سوى الأدب العربي القديم الراقي، فراح يقلده مدخلا فيه من الحياة الجديدة، مبتعدا عن كل غث وركيك، مضيفا على ذلك عذوبة القديم ورقة الحضارة الجديدة في جو من التشبيهات

[1]- عبد الملك، مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954 ، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص125.

والاستعارات والمجازات وجرت القصيدة المجرى التقليدي على وزن موحد وروي واحد، كما عالج الشعراء الموضوعات التقليدية مع شيء من طلاء الجديد. [1]

وكان من زعماء هذه المرحلة (خليل الخوري 1836-1907)، (عائشة التيمورية 1840-1902)، (إسماعيل صبري 1854-1923)، (حفني ناصف 1856- 1919)، ولعل أول هؤلاء جميعا الشاعر محمود سامي البارودي [2]، هذا الشاعر الذي انكب على قراءة دواوين القدامى من الشعراء أمثال أبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، والمتنبي، لذلك فلا غرابة أن نجده في مقدمة ديوانه يقر بذلك في قوله:

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلمـــا

فلا يعتمدني بالإساءة غـــــافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما [3]

كما أورد الشاعر في مقدمة ديوانه مفهوما للشعر يمكن أن نعده رأيا وموقفا نقديا حول حقيقة الشعر الجيد ووظيفته وخصائصه من حيث اللفظ والمعنى، إذ يقول: «وبعد فإن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك، ويهتدي بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلقت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، سليما من وصمة التكلف، بريئا من عشوة التعسف، غنيا عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجيد». [4]

وليصل الشاعر إلى مرتبة الإبداع الشعري الجيد، فإنه لا يبدأ من فراغ، لذا نجد البارودي يستحضر الشعر القديم من خلال معارضته لفحول الشعراء، فقد عارض النابغة من خلال قصيدته التي يقول فيها:

أمن آل "مية" رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مـزود

---

[1]- ينظر حنا، الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب العربي الحديث"، ط1، دار الجيل، بيروت، 1986، ص123.

[2]- (ولد محمود سامي البارودي في القاهرة عام 1839، تيتم صغيرا، درس بالمدرسة الحربية وتخرج منها، سافر إلى القسطنطينية، اندمج في سلك الجيش بعد عودته إلى مصر اشترك في الحروب العثمانية، اشتغل وزيرا للأوقاف وللحربية ورئيس وزراء، وخاض مع الثورة العرابية 1881، وبعد فشلها نفي إلى جزيرة سيلان أين جمع شعره وكتب مختارات البارودي، عاد إلى مصر وقد فقد بصره، توفي في 1904. ينظر المرجع نفسه، ص125، 126).

[3]- محمود، سامي البارودي: الديوان، حققه وضبطه وشرحه علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت، 1998، ص35.

[4]- نفسه، ص 33، 34.

زعم البوارح أن رحلتنا غـدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود [1]

بقوله:

ظن الظنون فبات غير موسـد حيران يكلأ مستنـير الفرقـــد

قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم خوف التفرق أن أعيش إلى غد [2]

كما يعارض أبا فراس الحمداني حين يقول مفتخرا:

ونحن أنـاس لا توسط بيننـــا لنا الصدر دون العالمـين أو القبـر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر [3]

بقوله:

وأني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذيـن سيـوفهـم لها في حواشي كل داجية فجـر

إذا استل منهم سيد غرب سيفـه تفزعت الأفلاك والتفت الدهـــر [4]

وقد يذهب في بعض أبياته إلى درجة المطابقة حين ينسج على منوال القدامى، ففي قصيدته التي نظمها بعد وصوله إلى منفاه بجزيرة "سرنديب" ورؤية صورة ابنته "سميرة" في المنام، يرسم بيتا بالقلم والمسطرة لبيت من قصيدة للشاعر أبي فراس الحمداني مع تغيير بعض المفردات، حين يقول:

علي طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر [5]

ويقول أبو فراس وهو في الأسر:

علي طلاب المجد من مستقره ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب [6]

ويقول على طريقة العرب:

ألا حي من أسماء بعض المنـازل وإن هي لم ترجع بيانا لســـائل

خلاء تعفتها الروامس والتقـــت عليها أهاضيب الغيوم الحوافـل

---

[1]- النابغة، الذبياني: الديوان، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص105.

[2]- البارودي: الديوان، ص128، 129.

[3]- أبو فراس، الحمداني: الديوان، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ت)، ص67.

[4]- البارودي: الديوان، ص 217.

[5]- نفسه، ص 241.

[6]- أبو فراس، الحمداني: الديوان، ص 24.

فلأيا عرفت الدار بعد ترســـــــم أراني بها ما كان بالأمس شاغلي
غدت وهي مرعى للضباء وطالما غنت وهي مأوى للحسان العقائل
فللعين منها بعد تزيــال أهلهـــــا معارف أطلال كوحي الرسائــل [1]

فمن يقرأ الأبيات وبالتالي القصيدة - لولا معرفة مسبقة بأنها للبارودي - لا يتردد لحظة في أن ينسبها لواحد من فحول شعراء الجاهلية، فهو يستهلها بمقدمة طللية، إذ يذكر الحبيبة، ويلقي التحية على المنازل التى لا ترد جوابا، ثم يصف الديار وقد لعبت بها عوامل الطبيعة كل ملعب، والبيت الثالث يحيلنا على مطلع معلقة عنترة (...أم هل عرفت الدار بعد ترسم؟)، ثم يبكي ويتغزل، ويذكر الرعاة والقبائل كأنه أعرابي قح من أهل البادية، وبعدها يصف الحرب، وهذا كله في حلة من الألفاظ الجزلة، والتراكيب المتينة، وقد تحوجك بعض المفردات التي طالما وظفها الجاهليون إلى قاموس لغوي للوقوف على معانيها.

وقال يمدح الخديوي (عباس حلمي باشا الثاني) ويشكره على ما أولاه من حسن الرضا وذلك بعد عودته من سرنديب أواخر 1899:

عباس يا خير الملوك عدالـــــة وأجل من نطق امرؤ بثنائه
أوليتني منك الرضا وجلوت لي وجها قرأت البشر في أثنائه
فاسلم لملك أنت بدر سريـــــره وعماد قوته ونصر لوائـــه [2]

كما قال يهنئ الخديوي عباس بولده الأمير "محمد عبد القادر" في 1901:

أهلال أرض أم هلال سمـــــاء شمل الزمان وأهله بضيـاء؟
بدرت لوامع منه شق وميضها حجب الظلام فماج في لألاء
وبدت أسرته فكانت غـــــرة للملك فوق أسرة الجـــوزاء [3]

وقال يعزي صديقا له:

أعزيك لا أنــي أظنك جازعـــــــا لخطب ولكني عمدت لواجب
وكيف أعزي من فرى الدهر خبرة وأدرك ما في طيه من عجائب

[1]- البارودي: الديوان، ص462، 463.
[2]- نفسه، ص41.
[3]- نفسه، ص41.

فيا صاحبي مهلا فلست بواجـــد سوى حاضر يبكي فجيعة غائب
وصبرا فإن الصبر أكرم صاحب لمن بان عن مثواه أكرم صاحب [1]

ويذهب الأستاذ عباس بن يحي إلى أن «البارودي ليس مجرد معيد ومكرر (مقلد) للإنتاج الشعري القديم، إنه يحاكيه يتابع منهجه وأسلوبه، وهو إلى جانب ذلك ذات تعيش في عصر آخر وتنفعل لقضايا جدت من حولها» [2]، فهو رجل فارس ومواطن حر لا يرضي بالذل والهوان، ويعز عليه أن يصبر قومه على الإقامة بوطن يحرم أهله من خيراته، في حين يتنعم فيه الدخلاء ويتحكمون في زمام الأمور، لذلك يدعو قومه إلى الاستفاقة، والوقوف في وجه الظلم والاستبداد:

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة ومنافـــــع
أصبرا على مس الهوان وأنتمو عديد الحصى إني إلى الله راجــع
وكيف ترون الذل دار إقامـــــة وذلك فضل الله في الأرض واسع [3]

وقد يعمد إلى الهجاء وهو غرض تقليدي لكنه يضيف إليه من طرافة الجديد بحيث لا يصب هجاءه على الشخص بقدر ما يحارب به الأخلاق الفاسدة والخصال الذميمة:

وصاحب لا كان من صاحب أخلاقه كالمعدة الفاســـده
أقبح ما في الناس من خصلة أحسن ما في نفسه الجامده
لو أنه صور من طبعـــــــه كان لعمري عقربا راصده [4]

وقال يصف الهرمين:

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بناءان ردا صولة الدهـر عنهمـــــا ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهـــــدا لبانيـــهما بين البرية بالفخـــــــر
فكم أمم في الدهر بادت وأعصـــــر خلت وهما أعجوبة العين والفكر [5]

---

[1]- البارودي: الديوان، ص87.
[2]- عباس، بن يحي: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004، ص56.
[3]- البارودي: الديوان، ص318، 319.
[4]- نفسه، ص 188.
[5]- البارودي: الديوان، ص221.

ويرى إبراهيم أبو الخشب بأن«الذي يقرأ ديوان البارودي قراءة واعية لا يشك في أنه كان انتقالا للشعر من حال الركود أو الضعف إلى حال الازدهار والانتعاش» [1]، وذلك عن طريق محاكاة الشعراء الكبار، والاعتراف بشاعريتهم من أمثال (الحسن بن هانئ "أبي نواس"، ومسلم بن الوليد، وحبيب بن أوس الطائي "أبي تمام"، والوليد بن عبيد "البحتري"، وأحمد بن الحسين الجعفي "المتنبي")، وتجاوز شعر عصر الضعف، ومحاولة الإبداع والابتكار، وهو يشير إلى ذلك في ديوانه:

مضى حسن في حلبة الشعر سابقا وأدرك لم يسبق ولم يأل مسلم
وباراهما الطائي فاعترفت لـــــه شهود المعاني بالتي هي أحكم
وأبدع في القول الوليد فشعـــــره على ما تراه العين وشي منمنم
وأدرك في الأمثال أحمد غايـــــة تبأ الخطى ما بعدهـا متقـــدم
وسرت على آثارهم ولربمـــــــا سبقت إلى أشياء والله أعلـــم [2]

فهو قد نظم في الأغراض والموضوعات القديمة كالمدح، والهجاء، والفخر، ووصف الحروب، والغزل، والحكمة، والزهد، والرثاء، والتعزية، والتهنئة مجاراة للأقدمين محافظا على شكل القصيدة العمودية القديمة ذات الصدر والعجز والقافية الموحدة، والألفاظ والعبارات الجزلة، كما تمشى مع المحدثين حين كتب في الشعر السياسي، وحب العدالة والحرية والمساواة، ووصف الطبيعة والآثار المصرية، والحنين إلى الوطن.

[1]- إبراهيم، أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978، ص203.
[2]- البارودي: الديوان، ص566.

مرحلة ما بعد البارودي

من تلامذة البارودي الذين لازموه بعد عودته من المنفى الشاعر المصري **أحمد شوقي** [1]، عاش شوقي نصف عمره أيام البارودي، والنصف الثاني بعد وفاة البارودي، لكنه شاعر مكثر، وحسبك أن ديوانه "الشوقيات" يمتد عبر أربعة أجزاء، بل إن له من القصائد الطوال ما تكفي الواحدة أن تخلده، فلا غرابة أننا نجد في بعض شعره توافقا مع شعر البارودي وفي بعض شعره تفاوت مع هذا الأخير، بل إن شعر شوقي ذاته فيه من التنوع والاختلاف، فهو ينظم في الأغراض التقليدية القديمة من مدح، ورثاء، وفخر، وغزل، وحكمة، وأمثال، كما أنه نهج نهْج البارودي في معارضاته للشعر القديم، فهو يعارض البحتري بقصيدته السينية أيام منفاه بالأندلس يحن إلى موطنه مصر، وإلى أيام الصبا قائلا:

اختلاف النهار والليل ينسي أذكرا لي الصبا وأيام أنسي [2]

ويقول البحتري في قصيدته (إيوان كسرى):

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس [3]

وفي قصيدته (صدى الحرب) يقول معارضا المتنبي:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلـــب وينصر دين الله أيان تضرب

وما السيف إلا آية الملك في الورى ولا الأمر إلا للذي يتغلـــب [4]

ويقول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي والي مصر في قصيدة عنوانها (كل مكان ينبت العز طيب):

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

أما تغلــط الأيـام فـيّ بـأن أرى بغــيضا تُنــائي أو حبيــبا تُقــرب [1]

---

[1]- (ولد أحمد شوقي في القاهرة عام 1868، اجتمعت فيه العناصر التركية، والعربية، والكردية، واليونانية، درس بالكتاب ثم بمدرسة الحقوق، ودرس بقسم الترجمة ونال الإجازة، عينه الخديوي توفيق بالبلاط، ثم أرسله في 1887 إلى جامعة مونبلييه بفرنسا لدراسة الآداب والحقوق، ثم واصل في باريس، تجول بفرنسا، وزار إنجلترا، حين عاد إلى مصر قربه عباس حلمي ، نفاه الإنجليز إلى إسبانيا سنوات الحرب العالمية الأولى ليعود بعدها إلى وطنه، ليصير شاعر الشعب، توفي عام 1932، من آثاره ديوان "الشوقيات"، كتاب دول العرب وعظماء الإسلام، ورواياته المسرحية (مصرع كليوباترا، مجنون ليلى، علي بك الكبير، عنتره، قمبيز، الست هدى)، وكتاب أسواق الذهب... ينظر إيليا، الحاوي: أحمد شوقي أمير الشعراء، ط3، ج3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ص5- 8).

[2]- أحمد، شوقي: الشوقيات، ط1، ج 2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، ص45.

[3]- البحتري: الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، المجلد 2، ط 3، دار المعارف، مصر، (د ت)، ص1152.

[4]- أحمد، شوقي: الشوقيات، ج 1، ص 42.

ومن الشعر الأندلسي قال معارضا ابن زيدون، مستلهما محنة المعتمد بن عباد حاكم إشبيليا، متأسفا لضياع ملكه وذهاب مجده:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينـــا؟

ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت في حواشينا؟ [2]

وقال ابن زيدون أسفا على القطيعة بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله:

أضحى التنائي بديلا من تدانينـــا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا! وقد حان صبح البين، صبحنا حَين، فقام بنا للحَين ناعينـــا [3]

وعارض من عيون الشعر قصيدة "البردة" للبوصيري في مدح سيد الأنام محمد (ص)، (أمن تذكر جيران بذي سلم ...) قائلا في "نهج البردة":

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم [4]

كما عارض همزية البوصيري المشهورة (كيف ترقى رقيك الأنبياء؟...) في مدح الرسول(ص) بقوله :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء [5]

ولئن اتهمه بعض النقاد بالسطو على معاني الشعراء القدامى، فإن لشوقي رأيا يمكن أن نعده موقفا نقديا في السرقات الأدبية، إذ يرى أن من طبيعة الشعراء والأدباء أن يتأثر الحاضر بالسابق، ويؤثر في اللاحق، يقول شوقي:

لا تسرق الشعر واتركه لقائلـــه فـإن أقبـح شيء سرقـة النـــــــاس

إني وإن صَفرت كفي أخو أدب أُسقى وأَسقي أولي الألباب من كاسي [6]

وإلى جانب الأغراض القديمة، جدد أمير الشعراء في الأغراض والموضوعات الشعرية، كما تحلل من قيود الشعر الجاهلي فهو لا يضطر أن يستهل القصيدة بالغزل، ولا يجعل الفخر منتهى بغيته، كما حاول توحيد أجزاء القصيدة والربط بينها، والتجديد على مستوى الألفاظ،

---

[1]- المتنبي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 466.

[2]- أحمد، شوقي: الشوقيات، ج 2، ص 104.

[3]- ابن زيدون : الديوان، شرح يوسف فرحات، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص298.

[4]- أحمد، شوقي: الشوقيات، ج1، ص190.

[5]- نفسه،ج1، ص34.

[6]- إبراهيم، أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، ص210.

«فلغته تعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها، ولعل سر ذلك عند شوقي أن البعث وسيلة من وسائل التجديد، بل قد يكون البعث آكد وسائل التجديد نتيجة ما يكون من أرباب اللغة، ممن يفيضون على الألفاظ القديمة روحا تكفل حياتها» [1]، وجمع شوقي بين القديم والحديث على مستوى الصور والأخيلة، ويكفيه شرفا وإبداعا في مضمار التجديد أنه نقل إلى الشعر العربي لونا جديدا وهو الشعر التمثيلي أو المسرحي [2]، وهو باب لم يلجه الشعراء القدامى، كما لم يقتحمه البارودي قبله، وقد أشرنا إلى بعض عناوين مسرحياته الشعرية، فمن الجديد لديه أنه عاش لمصر كما عاش للأمة العربية وقضاياها القومية ومآسيها، فهو يهتز لما أصاب السوريين حين ضربت دمشق بمدافع الفرنسيين عام 1925 قائلا:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشـــق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق [3]

كما كتب في زعيم المقاومة الليبية "عمر المختار":

ركزوا رفاتك في الرمال لـــواء يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم! نصبوا منـــارا من دم توحي إلي جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب محبة وإخـــاء؟ [4]

ولو رحنا نقف على الموضوعات التي نظم فيها شوقي لما اتسع لنا المقام فقد كتب في القضايا الوطنية، والملاحم، وفي وصف المناظر الطبيعية من صنع الله ومن صنع البشر(وادي النيل، الغواصة، أبو الهول، جسر البوسفور)، «ومعظم ما يخلبه من الطبيعة مواقع الجمال ومشاهده ومظاهر العمران والأبنية التي لها أبعاد تاريخية مغمورة بالأسطورة والوهم مفعمة بالذكريات والشعور بنزوح الزمن وحسرة الماضي المتآكل» [5]، وفي قصص الحيوان والطير على غرار ما في كليلة ودمنة نثرا، وكتب حول رجال الأدب والموسيقى والسياسة،

---

[1]- أحمد، شوقي: الشوقيات، المقدمة بقلم محمد حسين هيكل، ص 16.
[2]- ينظر حامد، حفني داود: تاريخ الأدب الحديث، تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،ص45، 46.
[3]- الشوقيات، ج2، ص74.
[4]- نفسه، ج3، ص17.
[5]- إيليا، الحاوي: أحمد شوقي أمير الشعراء، ج3، ص59.

والموسيقى(ابن زيدون، ومحمد عبد المطلب، والمويلحي، والمنفلوطي، وجرجي زيدان، وسلامة حجازي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وشكسبير، وفكتور هيجو، وتولستوي، وفردي، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول).

فإن كان شوقي يشترك مع البارودي في عملية بعث وإحياء الشعر العربي من رقدته ولكن في قالب القصيدة العمودية، فإن شوقيا بنفسه الطويل وكثرة شعره وسعة اطلاعه على الثقافة الغربية يكون قد سار بالشعر العربي وبالقصيدة أشواطا بعيدة على الرغم من الحملة النقدية التي شنها عليه معاصروه ومعارضوه.

ومن شعراء مصر الكبار الذين عاصروا أحمد شوقي **شاعر النيل حافظ إبراهيم** [1]، بل إن مصر والأمة العربية ثكلت بالرجلين معا في عام واحد (1932)، وإذا عاش شوقي حياة الرغد والترف والأرستقراطية في كنف القصور والأمراء، فإن حافظا عانى من البؤس والحاجة، وعاش منذ ولادته في كنف الشعب،«وفتن شاعرنا بما قرأ في كتاب الوسيلة الأدبية من شعر البارودي، فأصبح تلميذه، وسار على نهجه في قوة اللفظ، وجزالة السبك، ومتانة الصنعة، وجودة التأليف على نغم الألفاظ، وجرس الحروف، ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده» [2]، فلا غرابة أن يتأثر شاعرنا بالرجلين، فقد سخر جل شعره من أجل الإصلاح، وخدمة الأخلاق والدين والوطن والأمة، كما أنه دخل المدرسة الحربية مثل البارودي، وأمل أن يتبوأ مكانته القيادية والسياسية، ولكنه لم يبلغ إلا مكانته الأدبية، «وكان له أسوة حسنة في محمود سامي البارودي[...] فاتخذه حافظ مثله الأعلى يحذو حذوه، ويختط نهجه» [3]، فحين نتصفح ديوان حافظ نجده ينظم في المدائح، والتهاني، والأهاجي، والإخوانيات، والخمريات، والغزل، والشكوى، والمراثي، وهي جميعا من الأغراض الشعرية التي خاض فيها القدامى، كما أنه

---

[1]- (ترجح الكتب ولادة الشاعر في 1871أو 1872في سفينة كانت راسية في النيل، ولعل ذلك سبب تلقيبه بشاعر النيل توفي والده وهو في الرابعة من عمره، فانتقل مع والدته إلى بيت خاله، فدخل بعض المدارس، واطلع على دواوين الشعراء القدامى، مارس المحاماة، ثم دخل المدرسة الحربية، وعمل في السودان، ثم أحيل على الاستيداع من الجيش بسبب التحريض على العصيان، اتصل بالشيخ محمد عبده، كما عمل بدار الكتب الخديوية، توفي عام 1932. من آثاره ديوانه الشعري، ليالي سطيح، تعريب كتاب البؤساء. ينظر حنا، الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب الحديث"، ص 136- 143).

[2]- إبراهيم، أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، ص304.

[3]- حافظ، إبراهيم: الديوان، ط3، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1987، ص73 من مقدمة الديوان بقلم أحمد أمين.

حافظ على المعمار القديم للقصيدة، فهو يقول في تهنئة الإمام محمد عبده بمنصب الإفتاء عام 1899:

بلغتــك لم أنسب ولم أتغـــــزل ولما أقف بين الهوى والتــذلل
ولما أصف كأسا ولم أبك منـزلا ولم أنتحل فخرا ولم أتنبـــــل
فلم يُبق في قلبي مديحك موضعا تجول به ذكرى حبيب ومنزل
رأيتك والأبصار حولك خشع فقلت (أبو حفص) ببرديك أم(علي) [1]

صحيح أن ديوان حافظ لم يرد فيه باب للفخر، كما أن ما نظمه في الغزل والنسيب، وفي الوصف والهجاء لا يعدو الصفحات القليلة والقصائد المعدودة، إلا أنه مكثر في المديح، لكنه ههنا حين يمدح محمد عبده ويهنئه، إنما يمدح في شخصه الإمام العالم المصلح العامل من أجل إعلاء الدين وإصلاح شأن الأمة، كما قال يهنئه بعودته من سياحته بالجزائر عام 1903:

بكرا صاحبي يوم الإيـــــاب وقفا بي (بعين شمس) قفا بي
إنني والذي يرى ما بنفســـي لمشوق لظل تلك الرحـــاب
يا أمينا على الحقيقة والإفـــ تاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام في موطن الرأ ي ونعم الإمام في المحراب [2]

فمطلع القصيدة يحيلنا من خلال صدره إلى مطلع قصيدة الشاعر العباسي بشار بن برد التي يقول فيها:

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير [3]

أما عجزه فيحيلنا إلى مطلع معلقة الشاعر الجاهلي امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل [4]

ولا يخفى مظهر مخاطبة الصاحبين بصيغة المثنى وهي ظاهرة منتشرة في الشعر القديم.

وكذلك كتب حافظ في غرض قديم هو الرثاء، إذ قال يرثي محمود سامي البارودي:

---

[1]- حافظ، إبراهيم: الديوان، ص5.
[2]- نفسه، ص23، 24.
[3]- بشار، بن برد: الديوان، ج3، شرحه محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957، ص 203.
[4]- امرؤ، القيس: الديوان، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص110.

ردوا علي بياني بعد (محمـود) إني عييت وأعيا الشعر مجهودي

ما للبلاغة غضبى لا تطاوعني وما لحبل القوافي غير ممـــدود؟ [1]

وكأني بالشاعر قد فقد البيان وعجز عن القول بعد وفاة البارودي، فالبلاغة لا تطاوعه، والقوافي لا تنصاع له، فحامد حفني داود يرى بأن حافظا هو تلميذ حقيقي للبارودي ولمدرسة البعث، لأنه رغم تمكنه من اللغة الفرنسية إلا أنه لم يفد من الأدب الأوربي كما أفاد أمير الشعراء أحمد شوقي [2].

وقد وردت للشاعر من خلال ديوانه مقطوعات قليلة في الغزل، وهو حين يتغزل لا يجعل الغزل منتهى همه ومراده، إنما يجعله مطية لشيء آخر بعده، ولنقرأ له هذه المقطوعة في الغزل:

ظبي الحمى بالله ما ضركا إذا رأينا في الكرى طيفكـــا

ما الذي تخشاه لو أنهـــــم قالوا فلانا قد غدا عبدكـــا ؟

قد حرموا الرق ولكنهـــــم ما حرموا رق الهوى عندكا

وأصبحت مصر مراحا لهم وأنت في الأحشا مراح لكـا

ما كان سهلا أن يروا نيلهـا لو أن في أسيافنا لحظكـــا [3]

إن الغزل لديه يتخذ بعدا وطنيا وسياسيا، فهو يعرض بالإنجليز من خلال الغزل، وهو يناهض الرق، ويرفض الاستعمار الذي حرم الرق على نفسه، ولكنه أباحه في الشعوب المستعمرة حين لم يجد فيها القوة والغلبة، وفي هذا الشأن يقول أحمد أمين عن حافظ وعن شعره وموقفه من القديم والجديد في مقدمته لديوانه:«إنه بعد ثورته على الشعر القديم نظم في موضوعاته، ولكنه حتى في هذه لا ينسى مقامه، ولا يجهل رسالته، ولا يفوته غرضه، فهو ينتهز فرصة تحية العام الجديد، وتحية المليك، ورثاء الفقيد، وتهاني العيد، ليبث في ذلك عاطفته الوطنية، ونظراته الأخلاقية، ويبشر وينذر، ويرغب ويرهب، فهو مجدد من هذه الناحية في موضوعاته الجديدة وموضوعاته القديمة». [4]

---

[1]- حافظ، إبراهيم: الديوان، ص453.

[2]- حامد، حفني داود: تاريخ الأدب الحديث، تطوره معالمه الكبرى مدارسه، ص41.

[3]- حافظ، إبراهيم: الديوان، ص248.

[4]- نفسه، ص79.

نعم إن مهمة الشاعر الإحيائي لا تنحصر في التقليد، ولا تقف عند حدود اجترار القديم في موضوعاته وأساليبه، لكنه يصنع من مادة القديم شيئا جديدا ويضيف إليه من نفسه ومن واقعه وعصره، وكذلك لم ينحصر شعر حافظ في الأغراض الشعرية القديمة، بل وجدناه يخوض أيضا في شعر الوصف، والشعر الاجتماعي، والشعر السياسي.